# الأخيرة وأصبح سجيناً

وقت متأخر رأيت سيفاً على التلفاز في بذلة أنيقة يتحدث إلى الشعب الليبي. كانت لحظات رهيبة خط القدر فيها مصير شعب وطن. كانت كلمات مرعبة، أشبه بطلقات المدافع العشوائية على سكان آمنين. كان خطاباً كارثياً يتحدى إرادة الشباب الثائر، ويستفز كرامتهم. كان خطاباً ينضح بسفه القوة واستقالة العقل. ما كنت لأصدق ما سمعت، لو لم يكن بالصورة والصوت، وبالنبرة التي أعرفها جيداً. أحسست بأن العالم قد سقط فوق رأسي، وأنني فقدت الشخص الوحيد الذي أنفقت جزءاً كبيراً من حياتي في رعايته، عله يكون منقذاً لوطنه في اللحظات العصيبة التي نعيشها.

«بعد منتصف الليل، دق جرس الهاتف، وكان سيف على الطرف الآخر، سيف الإسلام الجديد، أو سيف الإسلام الشبح، لأن سيف الإسلام الذي أعرفه قد لفظ أنفاسه مع آخر كلمات ذلك الخطاب. طلب إلي أن أذهب إليه في المعسكر، وحين قلت له إنني لا أستطيع لأن صوت الرصاص في كل مكان، أجابني بأنه سوف يبعث بمن يأخذني إليه. كنت أتمنى ألّا أراه. ماذا سوف أقول له؟ وماذا يريد أن يسمعني؟ لقد سمعت منه تلك الليلة بما فيه الكفاية. وصلت مع مرافقين مسلحين إلى معسكر باب العزيزية. وجدت على الباب خميس القذافي ببزته العسكرية. سلم علي واعتذر، لأنه مرهق وذاهب إلى النوم. كان الوقت متأخراً. أدركتنا ساعات الصباح. استأذنت سيفاً بالمغادرة. وقف وصافحني قائلاً: اسمع يا هوني، نحن على حق ومظلومون وإن الله معنا. قلت له: إن من معه الله ليس في حاجة إلى الهوني، وإنني سأغادر ليبيا غداً».

«في 22 فبراير 2011، تمكنت من السفر بفضل بعض الأصدقاء وكنت أكاد أمشي

> يحكي الهوني عن لقائه العقيد معمر القذافي أول مرة في يوم من شتاء 1968

على البشر، فأعداد المسافرين خارج المطار قد ضاقت بهم الساحة المعدة لوقوف السيارات. أما في الداخل، فقد كان المنظر مرعباً: أطفال ونساء وشيوخ، ليبيون وعرب وأجانب، كلهم يبحثون عن مقعد في طائرة للهرب من الجحيم. بعد وصولي إلى روما شعرت بأنني تركت خلفي وطناً مضرجاً بالدماء. كانت ليبيا مثل سنديانة تعصف بها الأعاصير».

■■■

يكشف الكتاب أشياء كثيرة عن سيف الإسلام وشخصيته، وعن مرحلة من طفولته، وعن علاقته بأبيه وإخوته التي كانت تبلغ حد الجفاء، وكيف كان سيف يحتقر مؤسسة القبيلة، ولا يحب الارتباط حتى بعلاقة صداقة مع أحد من قبيلته، وهذا ما جعل أبناء قبيلة القذاذفة يلتفون حول أخيه المعتصم، الأمر الذي أسهم في إذكاء الصراع بين سيف وأخيه، حتى في أثناء الثورة على النظام. يكشف الكتاب أيضاً قوة العلاقة بين سيف الإسلام وعبد الله السنوسي، عديل القذافي، ورئيس شعبة المخابرات، وضعفها بين سيف وبين موسى كوسة، رئيس الأمن الخارجي، ويبين إلى أي حد كان معمر القذافي مسكوناً بهاجس المؤامرات والانقلابات، وكيف أنه لم يكن يأبه بأشياء كثيرة، لكن متى تعلق الأمر بأمنه وسلطته «فإنه كان يرى الأمور جدها جد وهزلها جد». يكشف الكاتب كذلك كيف كانت الأمور تسير في ليبيا وحجم المفاسد، والمؤامرات التي كانت تحاك بين أركان الحكم، وكيف أن بعض أبناء القذافي كانوا يشوهون بأفعالهم سمعة الدولة، باستيلائهم على الممتلكات العامة، وترفهم في الخارج، خصوصا هانيبال الذي دخل السجن في سويسرا لأنه وزوجته اللبنانية اعتديا على خادمات كنّ بصحبتهما في جنيف.

يقول المؤلف إنه بالرغم من أن سيف الإسلام كان يحب ليبيا والليبيين «إلا أنه فشل فشلاً ذريعاً في مشروعه الإصلاحي، وقد يكون زاد حجم الفوضى بحسن نية، باتخاذه سبلاً ووسائط لا يمكن أن توصله إلى غاياته النبيلة». يعترف أيضاً «بأن سيف الإسلام ساهم مساهمة كبيرة في ثورة 17 فبراير التي اجتثت نظام والده وحكمه، ودفعت فيها عائلته كلفة عالية جداً على المستوى الوجودي والوجداني».

لا يذكر الهوني في كتابه ما إذا كانت هناك عوامل خارجية أدت إلى ثورة 17 فبراير 2011 على نظام العقيد معمر القذافي، مركزاً كلامه على عوامل داخلية تتصل بشخصية القذافي الغريبة المعقدة التي وصفها بالبارانويا، وبتصرفات بعض أبناء العقيد، ومفاسد السياسة التي انتهجها البغدادي المحمودي. لكن الدكتور عبد الله عثمان، المقيم في القاهرة والذي كان من أقرب المقربين لعائلة القذافي، لا ينفي في مقال له أثر «المسؤولية الداخلية» وراء ثورة 17 فبراير، التي يسميها أحداث 17 فبراير، لكنه لا يراها «السبب الوحيد»، وينتقد الذين ينظرون إلى الأمور «بعين واحدة» على حد قوله، متجاهلين أثر «العوامل الخارجية» وراء أحداث ليبيا، وما حصل للعقيد الذي يترحم عليه، ولسيف الإسلام الذي يدعو الله أن يفك أسره. لا يتردد عثمان من الإشارة ضمنياً إلى أن «الأسباب الخارجية» ما هي إلا «العامل العربي»، أي دول عربية (لم يسمها) تآمرت على ليبيا ومعها «الاستعمار» الكامن دائماً في كل مراحل التاريخ، والجاهز دوماً «للظهور والعودة»، وفق قول المفكر الجزائري الراحل مالك بن نبي.

بقي من الحق أن نقول إن سبب عدم إشارة الدكتور الهوني إلى «الأسباب الخارجية» في الصراع على ليبيا لا يعني تجاهله لها، لأن هذه الأسباب كانت بادية لمن كان يسمع التصريحات العربية الرسمية، ويرى الطائرات الأجنبية تحلق في سماء ليبيا وتدك أسوارها، لتصفي حساباتها مع العقيد القذافي مهما كلف الأمر، حتى لو تم ذلك على حساب البشر. وبما أن الدكتور عثمان لم يتجاهل «الأسباب الداخلية» من فساد واحتقان وتذمر على حد قوله، يبقى أن تحليله ثورة فبراير، أو أحداث فبراير، تكملة لما ذكره الدكتور الهوني من «أسباب داخلية»، وأخرى «خارجية» ما كان في نيته تجاهلها، وهي أسباب أثبتت الأحداث أنها تضافرت جميعها وأحدثت ذلك «اللقاء التراجيدي» وفق قول الدكتور عثمان.

مهما يكن، يجب أن لا نتغافل عن مسؤولية الحاكم في كل الظروف، مهما كانت الظروف، ومهما كانت المستجدات، لأن في هذا التغافل تكمن جريمة قتل الحقيقة. وفي تاريخنا العربي القديم والحديث ظواهر زعماء أتوا في غفلة من الزمن، وجروا أممهم وبلادهم إلى المجهول، وسواء كانت الأسباب داخلية أو خارجية، فهذا لا يعفي الحاكم من مسؤوليته أمام التاريخ، وتجاه شعبه ووطنه.

يقول محمد عبد المطلب الهوني في كتابه عن سيف الإسلام، إنه سأل مرة صديقه سيفاً، عن الشخص الذي سماه سيف الإسلام، ولماذا سُمي هذا الاسم، فأجاب أن والده العقيد، أخبره أنه عندما كانت أمه حاملاً به، رأى «الرسول» في منامه ممتطياً فرساً أبيض، وأن «الرسول» أعطاه «سيفاً»، وأن هذه المبادرة «الرسولية» جعلته يسمي ابنه سيف الإسلام! لا ندري إلى أي حد، يمكننا أن ندرك دور «الأحلام» في الطريقة التي تدار بها السياسة في عالمنا العربي الحزين، لكننا لو ضربنا في الغيب وصدقت الرؤية، فلا بد من أن يكون «الرسول» قد قلد العقيد سيفاً مكنه من أن يقضي به على الكثيرين من خصومه ومن مناوئيه، حتى إذا ما اشتدت الأحزان وسالت الدموع، وارتوت الأرض من ثغب الدماء، استل «الثوار» السيف ذاته، وهووا به على رأس العقيد!

* صحافي لبناني

# هيروشيما وأخواتها

**عامر محسن**

ما يجعل جريمة «هيروشيما» فريدة لا يقتصر على هولها وحجمها، وفكرة أن اميركا قد قرّرت، عن قصدٍ ودراسة، أن تبيد خلال لحظات عدداً من البشر يوازي ضحايا الحرب السورية في سنين خمس. هناك اطروحةٌ لا يمكن لمن يقرأ التاريخ تجاهلها تقول بأن «الأجيال الماضية» ترتكب، دائماً، أفعالاً فظيعة، وعنفاً، وقتلاً؛ وتكون هذه الجرائم، في حالات كثيرة، «تأسيسية» لحدودنا السياسية وكياننا الوطني ومكاننا في العالم، وجزءاً من تاريخنا لا يمكن تلافيه - ومهمة الأجيال الحالية هي في التعامل والتأقلم مع جرائم أجدادها. البعض يعالج ذلك بالانكار وبتزييف التاريخ، والبعض الآخر بالاعتذار وبتلاوة فعل الندامة (ما دام الاعتراف لم تعد له نتائج عملية)، ولكن الجميع - تقريباً - يبرر عنفه تحت صيغة انّه كان «اضطرارياً»، لا خيار فيه، ودفاعا عن النفس: إمّا أنا أو هو، قتلته كي لا يقتلني، أبدته كي لا يبيدني...

في حالة هيروشيما، الأميركيون أنفسهم لا يدّعون بأنّهم كانوا في مواجهة خطرٍ وجودي، أو في حالة دفاع عن حياتهم، أو - حتى - أنّ القنبلة كانت الطريقة الوحيدة لدفع اليابان الى الاستسلام. الأميركيون الذين يدافعون عن الجريمة (وأكثرهم يدافع عنها وينشر - الى اليوم - كتابات تؤيدها وتبررها) يقولون بوضوح إنّ المسألة كانت «خياراً»، وكانت الخيار «الأفضل»، لأن اجتياح اليابان كان سيكلف ملايين القتلى، أي ما يفوق بكثير عدد ضحايا القنبلة (وسيكون الكثيرون منهم اميركيين). هنا الوحشية الحقيقية، وهنا الشرّ الذي لا يجد ما يماثله: أن يصير القتل الجماعي عملية عقلانية، حسابية. خياراً نفعياً. هذا معنى الالتقاء بين عقلية امبريالية، تخوض الحروب وتدمّر بلاداً بأكملها من أجل حسابات ومصالح، وبين تكنولوجيا تسمح بتسهيل الابادة. كانت اليابان، بعد سقوط المانيا ووقوعها تحت حصارٍ محكم، ستستنفد امكانات المقاومة خلال أشهر، والاتحاد السوفياتي كان أقرب لاجتيًاحها من اميركا. ولعلّ الحشود السوفياتية على حدود اليابان هي التي جعلت واشنطن تستعجل برمي القنبلة، لكي تضمن أن تستسلم اليابان لها قبل أن تقع تحت الاحتلال الروسي، وكإشارة للسوفيات بأنهم صاروا يمتلكون هذا السلاح الرهيب، ولا يجوز لموسكو أن تفكّر في تحديهم لسنوات مقبلة.

حجم الكارثة، والرمزية التي تحيط بها، يجعلاننا ننسى بسهولة معنى أن تواجه مدينة، بعمالها واطبائها وجنودها وأطفالها، انفجاراً يوازي 15 الف طنٍّ من الديناميت في لحظةٍ واحدة. هذه هي الزاوية التي يقدمها إلينا تحقيقٌ مطوّل، أعده الصحافي الأميركي جون هيرسي عام 1946 بعد لقائه عدداً من الناجين من هيروشيما، وأعادت نشره مجلة «ذا نيويوركر» لمناسبة الذكرى السبعين للمجزرة. معايشة الانفجار، من وجهة نظر ضحاياه، تدخلنا الى جحيمٍ حقيقية، كانت مصير من قُتل في لحظاته الأولى خيراً من مصير الآلاف الذين أحرقتهم الأشعة ولم تقتلهم، فساروا بلا هدىً بحثاً عن مساعدة، ليموتوا خلال ساعات أو أيام وسط آلام رهيبة، أو الذين نظروا مباشرة الى الانفجار لحظة سطوعه في السماء، فذابت وجوههم بالكامل، أو الذين حاصرتهم الحرائق التي التهمت المدينة اثر الهجوم (دمّر الانفجار الأساسي، فوراً، جزءاً محدوداً من هيروشيما، الا أن الحرائق انتشرت بفعل الكتل الملتهبة التي تساقطت على أنحائها، كالنيازك، من بقايا منازل وأشجار رفعها ضغط الانفجار الى السماء، ثم أنزلها كالمطر).

غير أن هناك بعداً في تحقيق هيرسي يتجاوز توصيف المأساة، التي يصعب أن يحيط بأهوالها العقل البشري، ويتعلّق بالشعب الياباني، وثقافته وتنظيمه وتعاضده، وتعامله مع الكارثة ومع آلام أفراده؛ وهو قد يوضح لنا كيف تمكن هذا الشعب من استيعاب الكارثة وتجاوزها. في لحظة الانفجار (التي لم يسبقها انذارٌ أو ظهور لطائرات في السماء) كان أحد الناجين يراقب جاره وهو يهدم منزله بيديه، لأنه كان يقع في طريق «خندقٍ مائي» هدفه حماية المدينة (هيروشيما تخترقها سبعة أنهار، ولأن الأميركيين كانوا يتفننون باحراق المدن اليابانية، بمنازلها وسقوفها الخشبية التي تنشر النيران بسرعة، فقد قرر الدفاع المدني - قبيل الهجوم النووي - أن يشق خنادق تقسم أحياء المدينة الى مربعات، تحيط بها المياه عند الحاجة، لعزل الحرائق وايقافها). كان يكفي أن تعلن المدينة حاجتها إلى تلميذات المدارس لحفر الخنادق حتى تخرج آلاف البنات اليابانيات، حالما تعلن الصافرة خلو الأجواء من الغارات، الى الشوارع لبدء العمل - ولأنهنّ كنّ في الخارج لحظة الانفجار، فقد قُتل أكثرهنّ على الفور.

اليابانيّون الذين لم يُصابوا بجروحٍ خطيرة كانوا، اذ يصادفون قوافل الهاربين المصدومين، المثقلين بحروقٍ فظيعة، يقتربون من مواطنيهم المحتضرين ويعتذرون منهم بخجلٍ، لأنهم لا يشاطرونهم آلامهم. حين رأى الدكتور ساساكي، وهو يصعد درج مستشفى الصليب الأحمر، نور القنبلة النووية يشعّ من النافذة أمامه، وموجة الانفجار توقعه أرضاً، كان رد فعله الغريزيّ أن يصرخ بنفسه «ساساكي، غامباري!» («ساساكي، كن شجاعاً»)؛ قبل أن يكتشف أنه الطبيب الوحيد الذي ما زال سليماً في المستشفى، وينصرف - على مدى أيام - لعلاج أكثر من عشرة آلاف مصاب تدفقوا عليه. أحد الذين نجوا من المحرقة كان ينقل المصابين، في قاربٍ نهري، من ضفةٍ الى أخرى لم يصل اليها الحريق. وحين عاد من احدى رحلاته المكوكية ليجد النار قد بدأت تلتهم الغابة التي تجمّع فيها المصابون، نادى على الأصحاء بينهم، ليتطوّع مباشرة عشرات الشبان، وينظموا - تلقائياً - فرقة قاومت الحريق لساعاتٍ، ومنعت النار من الوصول الى الجرحى العاجزين. وحين كان أحد الأصحاء يمرّ على الجرحى ليسقيهم ماءً، كانوا، وهم يعانون سكرات الموت، يجهدون لرفع اجسادهم وحني رؤوسهم، ليشكروه على لطفه.

العقلية ذاتها التي صنعت «هيروشيما» قد زارت بلادنا ايضاً، مع حصار العراق، الذي لا يتكلّم عنه اليوم أحدٌ ولا يسترجع ذكراه. بدلاً من القتل اللحظي بالنووي، قرّرت واشنطن، بحسابٍ باردٍ ايضاً، أن تقتل عدداً مشابهاً من العراقيين، ولكن على مدى سنوات من العزل والتجويع. «هيروشيما العراق» كان وراءها، هذه المرة، العديد من المشاركين: «اخوة» عرب راقبوا - ببرودة ايضاً - مجتمع العراق وهو يُحتضر، وساهموا في الجريمة ودافعوا عنها. هؤلاء لديهم الوقاحة اليوم ليشتكوا من حال المجتمع العراقي، ومن سير الأمور في البلد، كأنها ليست نتيجة لتجويعهم وافقارهم وتجهيلهم لجيلٍ كاملٍ من العراقيين؛ وكأننا - إن هم نسوا - سننسى ما فعلوه، وسنسامحهم عليه، ولن نحاسبهم بما يستحقّون حين تحين ساعة الانتقام.